المجموعة التاريخية للصغار

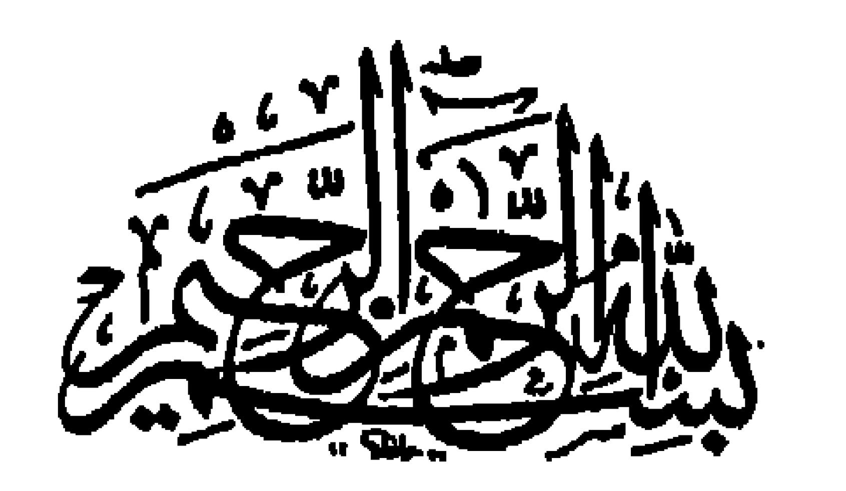
عجائب رحلة ابن بطوطة

لقاءٌ في القُدْس



إعداد
عبد القادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

<u>عنوان الدار :</u>

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب : 78

هاتف : 2213129 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

لِقَاءٌ فِي القُدْسِ

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ فِي خِطَابِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ المَرِينِي بِمَدِينَةِ فَاسَ المَغْرِبِيَّةِ ، وَكَانَ الكَاتِبُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزَيٍّ الكَلْبِيُّ مُسْتَعِدّاً لِيَكْتُبَ مَايَقُولُ :

ـ لَمْ أَكُنْ أَضَعُ فِي حِسَابِي يَوْمَ خُرُوجِي مِنْ طَنْجَةَ فِي غُرَّةِ شَهْرِ رَجَبَ مِنْ عَامِ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، وَأَنَا أَقْصِدُ الحَجَّ إِلَىٰ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ، أَنَّنِي سَأَشْهَدُ المَسْجِدَ الأَقْصَىٰ وَقُبَّةَ الصَّخْرَةِ المُشَرَّفَةِ ، قَبْلَ أَنْ أَشْهَدَ الكَعْبَةَ المَقْصُودَةَ مِنْ حَجِيجِ بَيْتِ اللهِ العَتِيقِ . وَقَدْ عَلِمْتُ يَا مَوْلَايَ أَنَّنِي أَخَذْتُ طَرِيقِي مِنْ طَنْجَةَ إِلَىٰ بُلْدَانِ تِلِمْسَانَ وَقَسنْطِينَةَ وَتُونُسَ وَطَرَابُلُسَ فَالإِسْكَنْدَرِيَّةِ ثُم قَصَدْتُ الحَجَّ عَنْ طَرِيقِ الإِبْحَارِ فِي النِّيلِ مِنْ قَاهِرَةِ المُعِزّ بِمِصْرَ إِلَىٰ أَقْصَىٰ الصَّعِيدِ عَنْ طَرِيقِ جُدَّةَ . .

فَلَمّا بَلَغْتُ مِنْ رِحْلَتِي عَلَىٰ مَرْكَبٍ فِي النَّيلِ مَدِينَةَ إِخْمِيمَ ، ثُمَّ مَدْيَنَ

هُوَ بِسَاحِلِ النَّيلِ ، نَزَلْتُ مِنْهَا بِمَدْرَسَةِ تَقِيِّ الدِّينِ المُكَنَّىٰ بِابْنِ السَّرَّاجِ ، وَعَقِبَ الأَوْرَادِ وَقِرَاءَةِ القُرْآنِ بَعْدَ صَلاَةِ الصُّبْحِ ، دَخَلْتُ إِلَىٰ حَضْرَةِ الوَلِيِّ ذِي الكَرَامَاتِ عَبْدِ الله الحُسْنِي ، وَهُوَ مِنْ كِبَارِ الصَّالِحِينَ وَكَانَ قَصْدِي التَّبَرُّكُ بِرُؤْيَتِهِ وَالسَّلاَمُ عَلَيْهِ .

وَمَا إِنِ اسْتَقَرَّ بِيَ المَقَرُّ فِي مَجْلِسِهِ حَتَّىٰ سَأَلَنِي عَنْ وِجْهَتِي فَأَخْبَرْتُهُ أَنِّي أُرِيدُ حَجَّ البَيْتِ الحَرَامِ عَلَىٰ طَرِيقُ جُدَّةَ ، فَسَكَتَ مَلِيّاً ثُمَّ قَالَ لِي :

ـ العِلْمُ عِنْدَ الله ، لاَ يَحْصُلُ حَجُّكَ فِي هَذَا الوَقْتِ ، وَإِنَّمَا تَحُجُّ أَوَّلَ حَجَّةٍ لَكَ عَلَىٰ الدَّرْبِ الشَّامِيِّ .

وَالحَقُّ يَا مَوْلاَيَ السُّلْطَانَ أَنَّنِي لَمْ أُبَالِ بِكَلاَمِ الشَّيْخِ عَبْدِ الله الحُسْنِي وَأَخَذْتُهُ عَلَىٰ مَحْمَلِ تَثْبِيطِ الهِمّةِ وَمَضَيْتُ فِي طَرِيقِي حَتَّىٰ وَصَلْتُ إِلَىٰ عَيْذَابَ ، فَلَمَّا وَصَلْتُهَا وَجَدْتُ الفِتْنَةَ قَائِمَةً بَيْنَ قَوْمٍ وَقَوْمٍ ، وَقَدْ خُرِقَتِ المَرَاكِبُ وَاحْتَرَقَتْ ، فَتَعَذَّرَ سَفَرُنَا فِي البَحْرِ ، فَبِعْنَا مَا كُنَّا أَعْدَدْنَاهُ مِنَ الزَّادِ ، وَاسْتَخْفَفْنَا مِنَ المَتَاعِ ، وَاكْتَرَيْنَا مِنْ عَرَبِ المَوْضِعِ عَدَداً مِنَ الجِمَالِ عَائِدِينَ إِلَىٰ صَعِيدِ مِصْرَ . فَلَمَّا بَلَغْنَا مِصْرَ بِتُّ فِيهَا لَيْلَةً وَاحِدَةً

وَقَصَدْتُ بِلاَدَ الشَّامِ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِيمَا أَذْكُرُ فِي مُنْتَصَفِ شَعْبَانَ مِنْ سَنَةِ سِتٍّ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِمِئَةٍ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِمُحَدِّثِهِ الرَّحَّالَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ بِهَذَا طَالَ عَلَيْكَ طَرِيقُ الحَجِّ ، وَزَادَتْ عَلَيْكَ المَشَقَّةُ .

أَجَابَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ صَدِّقْنِي يَا مَوْلاَيَ إِذَا قُلْتُ لَكَ : إِنَّنِي وَجَدْتُ فِي هَذَا البُعْدِ مَغْنَماً لاَ مَغْرَماً ، وَهَذَا مِنْ عَجَائِبِ الأُمُورِ التِي مَرَّتْ بِي فِي رِحْلَتِي ، وَفِي عِلْمِكَ يَا مَوْلاَيَ أَنَّ المَسْجِدَ الأَقْصَىٰ بِالقُدْسِ الشَّرِيفِ هُوَ مُنْطَلَقُ مِعْرَاجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَىٰ السَّمَاءِ حَيْثُ لَقِيَ رَبَّهُ ، فَكَانَ مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ صَدَقْتَ يَابْنَ بَطُّوطَةَ ، فَهَاتِ حَدِّثْنَا بِمَا جَرَىٰ لَكَ مِنْ حِينِ دُخُولِكَ إِلَىٰ الدِّيَارِ الشَّامِيَّةِ . .

ـ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدٌ ، شَمْسُ الدِّينِ الشَّهِيرُ بِابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ سَأَرْوِي لِمَوْلَايَ إِنْ شَاءَ الله خَبَرَ مَا أَكْرَمَنِي بِهِ الله بِرُؤْيَةِ مَا لَمْ يَكُنْ لِي فِي حِسَابٍ وَلَا تَقْدِيرٍ سِوَىٰ تَقْدِيرِ رَبِّ العَالَمِينَ جَلَّ وَعَلا . .

تَوَغَّلَ رَكْبُنَا فِي رِمَالِ سِينَاءَ حَتَّىٰ دَخَلْنَا عَدَداً مِنَ البُلْدَانِ مِنْهَا العَرِيشُ ، وَكَانَ بِكُلِّ مَنْزِلٍ مِنْهَا فُنْدُقٌ ، يُسَمُّونَهُ الخَانَ ، يَنْزِلُهُ المُسَافِرُونَ بِدَوَابِّهِمْ ، وَبِخَارِجِ كُلِّ خَانٍ سَاقِيَةٌ أَوْ سَبِيلُ مَاءٍ وَدُكَّانٌ أَوْ حَانُوتٌ يَشْتَرِي مِنْهَا المُسَافِرُ مَا يَحْتَاجُهُ لِنَفْسِهِ وَلِدَابَّتِهِ .

ثُم سِرْنَا حَتَّىٰ وَصَلْنَا إِلَىٰ مَدِينَةِ غَزَّةَ ، وَهِيَ أَوَّلُ بِلَادِ الشَّامِ مِمَّا يَلِي مِصْرَ . . وَوَجَدْنَا غَزَّةَ مَدِينَةً مُتَّسِعَةَ الأَقْطَارِ ، كَثِيرَةَ العِمَارَةِ حَسَنَةَ الأَسْوَاقِ ، لَهَا أَسْوارٌ قَائِمَةٌ ، وَبِهَا مَسَاجِدُ عَدِيدَةٌ .

وَسَأَلْتُ عَنْ المَسْجِدِ الذِي تُقَامُ بِهِ صَلَاةُ الجُمُعَةِ فَدَلُّونِي عَلَيْهِ فَإِذَا هُوَ بِنَاءٌ أَنِيقٌ مُحْكَمُ الصَّنْعَةِ ، وَمِنْبَرُهُ مِنَ الرُّخَامِ الأَبْيَضِ ، وَمَا إِنْ فَرَغْتُ مِنْ أَدَاءِ الصَّلَاةِ مَعَ المُصَلِّينَ وَخَرَجْتُ أُرِيدُ الفُنْدُقَ الذِي أَنْزِلُ فِيهِ حَتَّىٰ جَرَىٰ لِي أَمْرٌ مِنْ أَعْجَبِ العَجَائِبِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ وَقَدْ جَحَظَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الدَّهْشَةِ وَالعَجَبِ :

ـ وَمَا الأَمْرُ العَجِيبُ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ عَجِّلْ لَنَا بِهِ :

ـ وَجَدْتُ فِي انْتِظَارِي عَلَىٰ بَابِ المَسْجِدِ الشَّيْخَ المِصْرِيَّ صَاحِبَ الكَرَامَةِ الذِي أَخْبَرَنِي أَنْ لاَ حَجَّ لِي إِلاَّ عَنْ طَرِيقِ الشَّامِ ، وَصَافَحَنِي بِحَرَارَةٍ وَصِدْقٍ وَهُوَ يَقُولُ :

ـ كَيْفَ وَجَدْتَ كَلاَمَ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الله الحُسْنِيّ ؟

هَا أَنْتَ فِي قَصْدِ الحَجِّ عَنْ طَرِيق الشَّامِ ، وَمَدْخلُكَ إِلَيْهَا مِنْ غَزَّةَ . .

أُوَدِّعُكَ الآنَ وَمُلْتَقَانَا إِنْ شَاءَ الله تَعَالَىٰ تَحْتَ قُبَّةِ الصَّخْرَةِ فِي القُدْسِ الشَّرِيفِ .

وَخَلَّىٰ يَدِي وَشَرَعَ يَغُذُّ السَّيْرَ مُبْتَعِداً حَتَّىٰ اخْتَفَىٰ عَنْ نَظَرِي كَنَجْمٍ آفِلٍ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ وَبَعْدُ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ ، مَاذَا جَرَىٰ ؟ . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ سَأَرْوِي لَكَ حِكَايَةَ لِقَائِنَا العَجِيبِ فِي مَدِينَةِ القُدْسِ وَتَحْتَ قُبَّةِ الصَّخْرَةِ المُشَرَّفَةِ بِشَهَادَةِ شَاهِدٍ عَجِيبٍ وَلَكِنْ مَهْلاً عَلَىٰ عَبْدِكَ يَا مَوْلَايَ ، فَهُمْ يَقُولُونَ : كُلُّ شَيءٍ حَسَنٌ فِي أَوَانِهِ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ تَمَهَّلْ كَمَا تَشَاءُ . عَسَىٰ أَنْ تُعْطِي كَاتِبَنَا ابْنَ جُزَيٍّ فُرْصَةً يَسْتَرِيحُ فِيهَا مِنْ عَنَاءِ الكِتَابَةِ المُتَوَاصِلَةِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ مُسْتَرْسِلاً فِي رِوَايَتِهِ :

ـ ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْ غَزَّةَ إِلَىٰ مَدِينَةِ الخَلِيلِ صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَعَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ، خَيْرِ الأَنَامِ ، وَالخَلِيلُ مَدِينَةٌ صَغِيرَةُ السَّاحَةِ ، مُشْرِقَةُ الأَنْوَارِ ، عَزِيزَةُ المِقْدَارِ ، مَوْقِعُهَا فِي بَطْنِ وَادٍ ، وَمَسْجِدُهَا أَنِيقُ الصَّنْعَةِ ، بَدِيعُ الحُسْنِ ، مَبْنِيٌّ مِنَ الصَّخْرِ المَنْحُوتِ بِارْتِفَاعٍ شَامِخٍ . وَيُقَالُ : إِنَّ النَّبِيَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَدْ أَوْكَلَ بِنَاءَهُ إِلَىٰ الجِنِّ . . وَفِي دَاخِلِ المَسْجِدِ غَارٌ يُهْبَطُ إِلَيْهِ عَنْ يَمِينِ المِنْبَرِ عَلَىٰ دَرَجٍ مِنَ الرُّخَامِ يُفْضِي إِلَىٰ سَاحَةٍ مَفْرُوشَةٍ بِالرُّخَام ، فِيهَا ثَلَاثَةُ قُبُورٍ قِيلَ هِيَ : قُبُورُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مِنْ أَنْبِيَاءِ الله ، تِجَاهَهَا قُبُورُ زَوْجَاتِهِم .

وَبِدَاخِلِ هَذَا المَسْجِدِ أَيْضاً قَبْرُ يُوسَفَ بْنِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ ، وَمِنْ جِهَةِ المَشْرِقِ تُرْبَةُ النَّبِيِّ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، وَهِيَ عَلَىٰ تَلٍّ مُرْتَفِعٍ يُشْرَفُ مِنْهُ عَلَىٰ غَوْرِ الشَّامِ .

وَقَدْ كُنْتُ سَمِعْتُ بِبُحَيْرَةِ لُوطٍ ، وَهِيَ بِمَائِهَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ، بَالِغَةُ المُلُوحَةِ وَالمَرَارَةِ بِأَفْعَالِ قَوْمِهَا وَبِغَضَبٍ مِنَ الله ، فَرَأَيْتُهَا وَقِيلَ لِي إِنَّهَا مَوْضِعُ دِيَارِ قَوْمِ لُوطٍ .

فَاسْتَعَذْتُ بِالله مِنْ شَرِّ غَضَبِ الله ، وَلِلْمَوْعِظَةِ وَالاعْتِبَارِ قَامَ عَلَىٰ مَقْرُبَةٍ مَسْجِدٌ يُعْرَفُ بِمَسْجِدِ اليَقِينِ ، وَهُوَ عَلَىٰ تَلٍّ مُرْتَفِعٍ لَهُ نُورٌ وَإِشْرَاقٌ لَيْسَ لِسِوَاهُ ، وَلاَ يُجَاوِرُهُ إِلاَّ دَارٌ وَاحِدَةٌ يَسْكُنُهَا القَائِمُ عَلَىٰ خِدْمَتِهِ .

وَمِنْ عَجِيبِ مَا رَأَيْتُ بِقُرْبِ مَسْجِدِ اليَقِينِ مَوْضِعٌ مُنْخَفِضٌ فِي حَجَرٍ صَلْدٍ ، فَلَمَّا سَأَلْتُ عَنْهُ قِيلَ لِي : إِنَّ هَذَا مَوْضِعُ سُجُودِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ عِنْدَمَا سَمِعَ بِهَلاَكِ قَوْمِ لُوطٍ ، فَسَجَدَ للّهِ شُكْراً ، فَتَحَرَّكَ مَوْضِعُ سُجُودِهِ حَتَّىٰ سَاخَ فِي الأَرْضِ ، مِقْدَارَ مَا احْتَوَىٰ شَخْصَ إِبْرَاهِيمَ الشَّاكِرِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَبَقِيَ أَثَرُهُ دَلاَلَةً عَلَيْهِ .

قَالَ أَبُو عَبْدِ الله ، شَمْسُ الدِّينِ ، وَهُوَ الشَّهِيرُ بِابْنِ بَطُّوطَةَ مُخَاطِباً مَوْلاَهُ السُّلْطَانَ أَبَا عِنَانٍ المَرِينِيَّ مَلِكَ فَاسَ وَمَا حَوْلَهَا :

ـ صَدِّقْنِي يَا مَوْلاَيَ إِذَا قُلْتُ لَكَ إِنَّ مَدِينَةَ الخَلِيلِ أَرْضٌ مُبَارَكَةٌ مَغْرُوسَةٌ بِخُطَا الأَنْبِيَاءِ وَآثَارِهِمْ ، وَفِيهَا مِنَ المَشَاهِدِ وَالأَضْرِحَةِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهَا مِنَ الأَرَاضِي وَالبُلْدَانَ . . وَدَلِيلُ ذَلِكَ مَغَارَةٌ قَرِيبَةٌ مِنْ مَسْجِدِ اليَقِينِ ، فِيهَا قَبْرُ فَاطِمَةَ بِنْتِ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ . . نَزَلْتُهَا وَشَهِدْتُ القَبْرَ بِأُمِّ عَيْنِي وَقَرَأْتُ مَا جَاءَ عَلَىٰ شَاهِدَةِ القَبْرِ مِنْ نَثْرٍ وَنَظْمٍ وَهِيَ صَنْعَةُ خَطَّاطٍ مِنْ مِصْرَ اسْمُهُ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي سَهْلٍ النَّقَّاشُ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِمُحَدِّثِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ : مَا يَزَالُ فِي خَاطِرِي خَبَرُ لِقَائِكَ العَجِيبِ بِصَاحِبِكَ الشَّيْخِ السَّيِّدِ الشَّرِيفِ ، أَبِي مُحَمَّدٍ ، وَقَدْ كُنْتَ سَمَّيْتَهُ عَبْدَ الله الحُسْنِي وَعَرَّفْتَنِي أَنَّهُ مِنْ كِبَارِ الصَّالِحِينَ . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ الرَّحَّالَةُ :

ـ صَدَقْتَ يَامَوْلاَيَ ، هُوَ مَاذَكَرْتَ ، وَأَنَا في سَبِيل تَحْدِيثِكَ بِخَبَرِهِ مَعِي ، فِي الحَالِ . .

قَالَ أَبُو عَبْدِ الله :

تَجَاوَزْتُ حَرَمَ الخَلِيلِ مُسَافِراً إِلَىٰ القُدْسِ الشَّرِيفِ ، وَفِي طَرِيقِي ، زُرْتُ تُرْبَةَ النَّبِيِّ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَقَدْ شُيِّدَ فِيهَا بِنَاءٌ كَبِيرٌ وَمَسْجِدٌ . . وَزُرْتُ أَيْضاً بَيْتَ لَحْمٍ ، مَوْضِعَ مِيلاَدِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، وَمَا يَزَالُ بِهِ أَثَرُ جِذْعِ النَّخْلَةِ التِي شَهِدَتْ مَخَاضَ مَرْيَمَ العَذْرَاءِ وَسَاقَطَتْ عَلَيْهَا رُطَباً جَنِيّاً . وَالمَكَانُ مَعْمُورٌ فِيهِ عِمَارَةٌ كَثِيرَةٌ وَالنَّصَارَىٰ يُعَظِّمُونَهُ أَشَدَّ التَّعْظِيمِ ، وَيُضِيفُونَ مَنْ نَزَلَ بِهِ وَكَانَ لِي مِنْ ضِيَافَتِهِمْ نَصِيبٌ .

وَصَلْنَا إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ شَرَّفَهُ الله ، وَهُوَ ثَالِثُ مَسَاجِدِ الله فِي رُتْبَةِ الفَضْلِ عَلَىٰ وَجْهِ المَعْمُورَةِ ، وَقَدْ عُرِفَ أَنَّهُ مَصْعَدُ رَسُولِ الله مُحَمَّدٌ ﷺ فِي مِعْرَاجِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ بَعْدَ عَامِ الحُزْنِ ، وَقُبَيْلَ هِجْرَتِهِ إِلَىٰ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ . وَبَلْدَةُ القُدْسِ كَبِيرَةٌ مُنِيفَةٌ بِالصَّخْرِ المَنْحُوتِ ، وَكَانَتْ قَبْلَ أَنْ يَسْتَرِدَّهَا صَلاَحُ الدِّينِ بْنُ أَيُّوبَ مِنْ سَطْوَةِ الفِرَنْجَةِ مَدِينَةً مُسَوَّرَةً فَقَامَ ـ جَزَاهُ الله عَنِ الإِسْلاَمِ خَيْراً ـ بِهَدْمِ بَعْضٍ مِنْ هَذَا السُّورِ ، تَبِعَهُ فِي ذَلِكَ المَلِكُ الظَّاهِرُ خَشْيَةَ أَنْ يُعَاوِدَهَا الغُزَاةُ مِنَ الرُّومِ وَالأَعَاجِمِ فَيَسْتَحْصِنُوا وَرَاءَهُ .

وَمَسْجِدُهَا الأَقْصَىٰ مِنَ المَسَاجِدِ العَجِيبَةِ الرَائِقَةِ الفَائِقَةِ وَيُقَالُ : إِنَّهُ لَيْسَ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ مَسْجِدٌ أَكْبَرَ مِنْهُ .

لَقَدْ خَبَرْتُ اتِّسَاعَ المَسْجِدِ طُولاً وَعَرْضاً بِمِئَاتِ الأَذْرُعِ وَعَدَدْتُ لَهُ أَبْوَاباً كَثِيرَةً فِي جِهَاتِهِ الثَّلَاثِ ، وَأَمَّا الجِهَةُ القِبْلِيَّةُ فَكَانَ لَهَا بَابٌ وَاحِدٌ ، وَهُوَ الذِي يَدْخُلُ مِنْهُ الإِمَامُ ، وَالمَسْجِدُ كُلُّهُ فَضَاءٌ رَحْبٌ غَيْرُ مَسْقُوفٍ ، إِلاَّ مَا عُرِفَ بِالأَقْصَىٰ ، فَهُوَ مَسْقُوفٌ بِأَقْصَىٰ عِنَايَةٍ مِنْ إِحْكَامِ العَمَلِ وَإِتْقَانِ الصَّنْعَةِ ، وَسَقْفُهُ ذَاكَ مُمَوَّهٌ بِالذَّهَبِ وَالأَصْبِغَةِ الرَّائِقَةِ الجَمِيلَةِ ، عَلَىٰ أَنَّ فِي المَسْجِدِ مَوَاضِعَ أُخْرَىٰ مَسْقُوفَةً لِزُومِ الوُضُوءِ وَالمَشْرَبِ وَالعُبُورِ .

عَلَىٰ دَرَجٍ مِنَ الرُّخَامِ صَعِدْتُ إِلَىٰ قُبَّةِ الصَّخْرَةِ ، وَهِيَ مِنْ أَعْجَبِ المَبَانِي وَأَكْثَرِهَا إِتْقَاناً وَأَغْرَبِهَا شَكْلاً ، وَقَدْ أَخَذَتْ فِي شَكْلِهَا مِنْ كُلِّ بَدِيعَةٍ بِطَرْفٍ . وَلِلقُبَّةِ القَائِمَةِ عَلَىٰ ارْتِفَاعٍ أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ ، دَائِرُهَا مَفْرُوشٌ بِالرُّخَامِ ، وَهُوَ أَيْضاً مُحْكَمُ الصَّنْعَةِ كَدَاخِلِهَا . وَفِي ظَاهِرِ القُبَّةِ وَبَاطِنِهَا مِنْ أَنْوَاعِ الزِّينَةِ وَالتَزْوِيقِ مَا يَعْجَزُ الإِنْسَانُ عَنْ وَصْفِهِ .

عِنْدَمَا وَصَلَ ابْنُ بَطُّوطَةَ إِلَىٰ هَذَا الحَدِّ مِنَ الحَدِيثِ وَالوَصْفِ اعْتَرَضَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ بِقَوْلِهِ :

ـ أَرَاكَ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ قَدْ شَغَلْتَنَا بِالوَصْفِ المُعْجِبِ عَنِ الحَدَثِ العَجِيبِ الذِي وَقَعَ لَكَ مَعَ الشَّيْخِ الحُسْنِيِّ وَهُوَ ، كَمَا أَسلَفْتَ مِنْ كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ . .

أَجَابَ الرَّحَّالَةُ وَالمُتَحَدِّثُ وَنَدِيمُ السُّلْطَان ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ حِلْمَكَ عَلَيَّ يَا مَوْلَايَ فَأَنَا قَادِمٌ إِلَيْكَ بِخَبَرِهِ لِتَوِّي ، وَهَذَا مَاجَرَىٰ لِي فِي وَسَطِ القُبَّةِ المُشَرَّفَةِ .

قَالَ السُّلْطَانُ وَقَدْ بَدَا عَلَيْهِ ضَرْبٌ مِنْ نَفَادِ الصَّبْرِ :

ـ دُونَكَ وَمَا تُرِيدُ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ دَلِفْتُ يَا مَوْلَايَ إِلَىٰ وَسَطِ قُبَّةِ الصَّخْرَةِ الكَرِيمَةِ ، وَهِيَ التِي جَاءَ ذِكْرُهَا فِي المَأْثُورِ وَالآثَارِ ، وَهِيَ مَعْرَجُ رَسُولِ الله ﷺ إِلَىٰ السَّمَاءِ . وَجَدْتُ أَمَامِي صَخْرَةً صَمَّاءَ ، ارْتِفَاعُهَا نَحْوَ قَامَةٍ أَوْ تَزِيدُ قَلِيلاً تَحْتَهَا

مَغَارَةٌ مَسَاحَتُهَا مَسَاحَةُ بَيْتٍ صَغِيرٍ أَوْ حُجْرَةٍ وَارْتِفَاعُ سَقْفِهَا نَحْوُ قَامَةٍ أَيْضاً يُنْزَلُ إِلَيْهَا عَلَىٰ دَرَجٍ وَهُنَاكَ شَكْلُ مِحْرَابٍ ، وَعَلَىٰ الصَّخْرَةِ شُبَّاكَانِ فِي صَنْعَتِهِمَا إِحْكَامٌ وَإِتْقَانٌ . وَالشُّبَّاكَانِ يُغْلَقَانِ عَلَىٰ القُبَّةِ أَحَدُهُمَا مِنْ حَدِيدٍ بَدِيعِ الصَّنْعَةِ ، وَالثَّانِي مِنْ خَشَبٍ . .

قَاطَعَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مُحَدِّثُهُ ابْنَ بَطُّوطَةَ مُتَمَلْمِلاً :

ـ وَمَاذَا بَعْدُ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ :

أَجَابَ ابْنُ بَطُّوطَةَ عَاجِلاً :

ـ هُنَا بَيْتُ القَصِيدِ يَا مَوْلاَيَ . . وَهُنَا تَحَقَّقَتِ الكَرَامَةُ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ : وَكَيْفَ كَانَ . . كَيْفَ كَانَ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ عِنْدَمَا نَزَلْتُ عَلَىٰ الدَّرَجِ المُؤَدِّي إِلَىٰ قُبَّةِ الصَّخْرَةِ ، وَفِيهَا مِحْرَابٌ وَجَدْتُ رَجُلاً قَائِماً يُصَلِّي وَهُوَ وَحِيدٌ مُنْفَرِدٌ بِصَلاَتِهِ ، وَكُنْتُ قَدْ بُهِرْتُ عَيْناً وَنَفْساً بِرَوْعَةِ مَا أَرَاهُ ، وَكَادَ يَغِيبُ عَنْ بَالِي ذِكْرُ صَاحِبِي الصَّالِحِ ذِي الكَرَامَاتِ ، الشَّيْخِ عَبْدِ الله الحُسْنيّ الذِي وَجَّهَنِي إِلَىٰ الحَجِّ

الشَّامِيِّ ، وَهُوَ مُقِيمٌ فِي صَعِيدِ مِصْرَ . وَمَا لَبِثَ الرَّجلُ المُصَلِّي أَنْ سَلَّمَ عَلَىٰ الجِهَتَيْنِ ، وَقَامَ إِلَيَّ مُصَافِحاً وَمُعَانِقاً بِكُلِّ مَوَدَّةِ الأَصْحَابِ وَهُوَ يُخَاطِبُنِي بِجَمِيعِ مَا اشْتَهَرْتُ بِهِ مِنَ الأَسْمَاءِ وَالكُنَىٰ وَالأَلْقَابِ :

ـ أَهْلاً يَا مُحَمَّدُ . . . أَهْلاً يَا أَبَا عَبْدِ الله يَا بْنَ إِبْرَاهِيمَ ، أَهْلاً يَا شَمْسَ الدِّينِ اللوَاتِيِّ الطَّنْجِيِّ ، أَهْلاً يَا قَاصِدَ الحَجِّ . .

أَجَبْتُهُ : أَهْلاً يَا شَيْخِي وَيَا سَيِّدِي وَمَوْلاَيَ . . وَأَنَا فِي ذِرْوَةِ الارْتِيَاعِ وَالدَّهْشَةِ وَالنَّشْوَةِ الرُّوحِيَّةِ فِي آنٍ وَاحِدٍ . .

قَالَ لِي الشَّيْخُ عَبْدُ الله الحُسْنِي :

ـ اسْمَعْنِي يَا بْنَ بَطُّوطَةَ ، فِي كَلِمَاتٍ قَلِيلَةٍ ، تَحُجُّ بِإِذْنِ الله إِلَىٰ حَرَمِ مَكَّةَ الشَّرِيفِ ، وَتَرَحَلُ إِلَىٰ أَقْصَىٰ البِلاَدِ مِنْ بَحْرِ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ الصِّينِ ، وَيُلَقِّبُكَ مَنْ يَعْرِفُكَ وَمَنْ لاَ يَعْرِفُكَ بِالرَّحَّالَةِ الأَمِينِ . . وَدُونَكَ الشَّاهِدُ عَلَىٰ مَا أَقُولُ . أَشَارَ الشَّيْخُ الصَّالِحُ عَبْدُ الله الحُسْنِي بِسَبَّابَةِ يَدِهِ اليُمْنَىٰ إِلَىٰ سَقْفِ القُبَّةِ . فَإِذَا بِعَيْنَيْنِ تَلْتَمِعَانِ رُسِمَتَا فِي دُرْقَةٍ أَوْ تُرْسٍ مِنَ الجِلْدِ . عَلِمْتُ فِيمَا بَعْدُ أَنَّهُ تُرْسُ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، سَيِّدَ

الشُّهَدَاءِ ، وَعَمَّ رَسُولِ اللهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ ﷺ قَالَ الرَّحَّالَة الأَمِينُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ وَمَا لَبِثَ الشَّيْخُ الحُسْنِيّ أَنْ اخْتَفَىٰ مِنْ أَمَامِ نَاظِرِي بَعْدَ أَنْ أَلْقَىٰ عَلَىٰ مَسْمَعِي كَلِمَاتِهِ المُؤَثِّرَةِ ، وَبُشْرَاهُ العَجِيبَةَ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ المَرِينِيُّ سُلْطَانُ فَاسَ المَغْرِبِيُّ :

ـ قُمْ يَا ابْنَ بَطُّوطَةَ فَأَنْتَ حَقاً حَاجٌّ وَرَحَّالَةٌ أَمِينٌ . . وَطَوَىٰ الكَاتِبُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزِّيٍّ سِجِلَّهُ عَنْ أُعْجُوبَةِ اللقَاءِ فِي القُدْسِ ، وَتَحْتَ قُبَّةِ الصَّخْرَةِ المُشَرَّفَةِ . .

☆☆ ☆☆ ☆☆

☆☆ ☆☆

☆